سبيل الشخص

(الى أول الاحرار

من دوّن بعبقريته حكايات الليالي)

عبده جبير

كنت قد بدأت البحث عنه حتى تعبت لكنني قلت انه ليس من الحسن أن أتقاعس وهكذا بدأت البحث من جديد .

كنت في المرة الاولى قد حاولت دون خطة فقلت لاقم هذه المرة بعمل خطة وبالفعل جئت بحقيبة جلدية قديمة وعلقتها في رقبتي ووضعت فيها الخطاب وودعت زوجتي وأولادي الصغار وكذلك خالتي العجوز وركبت العجلة وفكرت قليلا وأنا أضع قدمي اليسرى على البدال وقدمي اليمنى على رصيف الشارع ونظرت للامام وانا امسك باليدين جيدا والحقيبة معلقة في رقبتي وفي جيبي علبة سجائري المعدنية والنقود التي املكها وقلت لانجه شمالا أولا فقد كانت حواسي تستشعر أن المكان في الشمال وقلت لاجرب هذا أولا ثم افكر فيما ستكون النتيجة .. وهكذا دست على البدال بقدمي اليسرى فتحركت العجلة وكدت أصطدم بالرجل الذي كان يمشي على حافة الرصيف بعد البلاط وهو يهذي لكنني تفاديته ومضيت حتى استقمت على الطريق المؤدي الى جهة الشمال وأصبحت على مقربة من الدرب الاحمر وأخذت أتنفس بصعوبة حتى اتمكن من اللف والدوران لأتمكن بعد كل شيء من طلوع المرتفع العالي المؤدي الى الدراسة والمقابر . وعلى جانبيه أكوام مرتفعة من التراب قيل انها السبب في ضعف النظر عند سكان القاهرة ولكنني قبل أن أتمكن من بلوغ المطلع رأيت فتيات ونساء يبعن زهورا لا رائحة لها وسعفا للذاهبين الى موتاهم ولكنني لم أر أحدا يقف ويشتري هذه الزهور وقلت ان من الافضل أن اذهب لاضع بعض الزهور على قبر أمي في « الامام » وأضع أيضا بعضا من هذه الزهور على قبر أبي هناك ولكنني لم أفعل بل انني وقفت من التعب وأخذت أتنفس بصعوبة ونزلت من العجلة وأخذت اسحبها حتى وصلت الى قمة المطلع ولكنني كنت قد تبللت بالعرق فأخذت اقف في مواجهة الريح حتى تجف سترتي وشعرت ببداية برد وزكام وقلت ان هذا ليس مشجعا على المضي قدما في مهمتي ولكن الهواء أخذ سترتي وجففها وأنا واقف ممسك بالعجلة أتطلع الى المارة والعربات والناس الذاهبين الى المقابر وقلت لأتوكل على الله وأنزل من الناحية الاخرى من المنحدر وانحرف يمينا الى القلعة فقد كانت الخطة تبدأ من هناك وكنت قد سألت رجلا عجوزا فقال لي انه لا يذكر جيدا ولكنه يظن انه كان قد سمع بسبيل الشخص عندما كان صغيرا منذ ستين عاما وكان يسكن القلعة فمضيت في محاذاة الرصيف وكانت القاهرة على يميني والمقابر على شمالي والقلعة في مواجهتي وأنا أبتسم وحاولت أن أغني لانني تذكرت الغوري وغيره من السلاطين وحريمهم وما كانوا يفعلون مع حريمهم الكثيرات جدا وقلت يا لها من حياة حقيقية فقد كنت طوال عمري أود أن أفعل مثل هؤلاء السلاطين

ولا أخرج من الحرملك ابدا بل أنام هناك طوال الوقت واشرب الشيشة والمنزول وأفعل كثيرا وأستمع لحكايات ألف ليلة وليلة خصوصا حكاية الجنية والملكين شهريار وشاه زاد وما فعلاه معها تحت الشجرة وأسرح في بلاد الله لخلق الله عندما أحب وأينما أكون وآخذ معي أجملهن وأذهب لأصطاد الغزلان في الغابات وأشويها وآكلها في الهواء الطلق وانام معهن في الهواء الطلق أيضا والبازي يحوم من حولي واقتربت القلعة مني الآن وأصبحت أنا قريبا منها وكانت العجلة تجري جدا وأنا لا أحرك البدال ولكنني أمسكت بها جيدا حتى لا أقع لان الارض كانت مزلقانا وبعد أن انتهى هذا المزلقان وأنا لا أكاد أفكر فقد تركت نفسي مع الهواء لم أقدر على أن أطلع المطلع التالي فتعبت ونزلت وأخذت أجرها وكانت سترتي قد تبللت مرة اخرى وخفت من البرد والزكام فوقفت لارتاح قليلا وتطلعت للمقابر التي كانت مليئة بالناس الذين جاءوا للزيارة والذين يعيشون هناك وكان الجو قد أصبح لطيفا من حولي لان العرق كان يجعلني أشعر بالهواء وهو رطب كالزير ولم تكن هناك فائدة من الوقوف والتطلع الى المقابر فمشيت فترة على قدمي ثم انني ركبت الدراجة حتى اصبحت القلعة على يميني تماما وكان أحد العساكر يمشي على السور حاملا بندقيته على كتفه فضحكت مرة ثانية فهكذا كان يفعل العساكر أيام زمان ولكنهم لم يكن معهم بنادق بل نبال وتذكرت الخطاب فوقفت ونزلت من العجلة ووضعت يدي في الحقيبة الجلدية فوجدته وكنت قد شعرت بأنه غير موجود وجاءتني رغبة شديدة في أن أجلس وأقرأ العبارة وقلت لاجلس على هذا الحجر وأركن العجلة قليلا وأفكر في الامر فوجدت انه لا يصح في هذا الزمان ولكنني أمضي الآن وأبحث عن سبيل الشخص وعندما اجد « علي » وأعطيه الخطاب سأعرف كل شيء منه واذا لم أجده هذا اليوم وفي يوم آخر حتى يصبح الزمان يوما وعكسه فسأفكر في الامر فلن أقضي عمري هكذا وقلت ان عليّ أن أتبع الخطة جيدا وأن أبدأ بحارة المطر كما قال الرجل العجوز في المقهى عندما سألته وقال انه غير متأكد ولكنه يذكر شيئا بهذا الاسم في صغره فأخرجت الورقة الصغيرة التي درنت فيها رموز الخطة ووجدت انني على حق وكان الوقت قد تأخر وبدأت الشمس تشتد فمضيت وركبت العجلة ومشيت حتى أصبحت قريبا من ميدان بجواره جامع وقلت ان الحارة بجوار الجامع ولكنني لم أتمالك العجلة فتركتها تجري لانني تعبت وقلت ربما هي تعرف الطريق أحسن مني وبالفعل وجدت حارة على يدي اليمنى فقدت الدراجة اليها ودخلت حتى تمكنت من السيطرة فأوقفتها وكانت هناك امرأة جميلة تلبس فستانا مشجرا وكانت تكشف عن ثدييها الكبيرين فوقفت بجوارها فابتعدت وقلت لامضي من هنا حالا وركبت وجريت من أمام المنزل ودخلت زقاقا مسدودا ونزلت وحمدت الله انها لم تناد على أحد ونظرت خلفي فاطمأننت تماما على ان أحدا ليس ورائي وأخرجت الخطاب من حقيبتي الجلدية وحاولت أن أقرأ الرقم مرة أخرى لكنه لم يكن واضحا وكان أحدهم يمشي هناك بتسكع اتجه اليّ وسألني اذا كنت أحتاج الى مساعدة فقلت له هل تساعدني على قراءة هذا الرقم فأخذ الخطاب مني وشعرت بأنه سيمضي به بعيدا ولكنه أخذ يحاول وقال انه لا يستطيع فربما يكون أربعة او اثنين فقلت له انني حاولت أيضا لكنني لم أستطع وانتظرت أن يقول شيئا عن سبيل الشخص لانه كان مكتوبا على الخطاب فوق الاسم ولكنه لم يقل شيئا بل انه وضع يديه في جيبي بيجامته ومشى وهو يحدث صوتا بالفبقاب وكان يبدو انه شاذ لانه كان قد فرق شعره المصفف بالصابون من الوسط وكان يهز خلفيته بطريقة غريبة . وكانت الحارة مسدودة من اليمين فمشيت من اليسار ووصلت الى الميدان وكان هناك عسكري مرور يصفر ويصفر وقلت انه لا داعي لسؤاله لانه مشغول فذهبت الى كشك سجائر على الناصية اليمنى ولكنني لم اجد أحدا داخل الكشك على الرغم من انه كان مفتوحا وانه يمكن سرقته بسهولة فوقفت وناديت : « يا صاحب الكشك » ، ولكنه لم يكن هناك فتحركت قليلا وركبت العجلة ومشيت الى الناحية الاخرى من الميدان واعجبني منظر البيوت القديمة ذات المشربيات على المرتفعات فوق الجبل وقلت ان هؤلاء الناس محظوظون لانهم ينظرون للقاهرة من أعلى وعندهم هواء نقي وقلت ان هذه المنحدرات تبدو اثرية وان لسبيل الشخص علاقة بهذا الموضوع وشعرت فعلا بفرحة وأنا أطلع الى هذه الطرقات المنحوتة في الجبل والبيوت مبنية فوقها ولكن الامر كان صعبا ومع ذلك وجدت شابة جميلة تقف امام الباب دخلت وتوارت خلفه فلم استطع ان أرى وجهها وقلت ان هذا فأل غير سار لكن لا يهم . ثم كان بعض الخواجات ينزلون من هناك ومعهم رجل ترجمان يتحدث بالفرنساوي فقلت أنه أفضل رجل يعرف سبيل الشخص ولكن الرجل لم ينظر اليّ لانه كان ماسكا بيد واحدة عجوز ويضحك معها بالفرنساوي وكان الرجل الربعة الذي في المقدمة متجهما ولم استطع بالطبع ان أسأل الترجمان ووقفت انظر لهم وهم ينزلون المنحدر ويتطلعون الى البيوت القديمة ويشيرون بيدهم الى أعلى وأخذوا بعض الصور ومضوا فجلست قليلا وقلت لاسأل أول واحد يمر . وفعلا جاء رجل أفندي فوقفت وقلت له : تسمح ؟ فقال : أفندم ! فقلت له هل تستطيع أن تقرأ لي هذا الرقم وأخذت أبحث عن الخطاب وكان الرجل قد تجهم وجهه جدا وأخيرا وجدت الخطاب في جيب سروالي وأعطيته له بسرعة فنظر الرجل له وضحك وقال : ده لا شيء ،

واعطاني الحطاب وتركني فقلت لاعتذر له ولكنني جلست واخرجت علبة سجائري واشعلت واحدة واخذت انفث الدخان والناس تمر عليّ ولا اسأل وفكرت في ان ألجأ الى سمسار المنطقة الذي لا بد أن يكون على المقهى تحت اولا اتف في هذه المنطقة فاذا لم اجد فلاعد الى الميدان واسأل هناك عليه واخذت افرأ اللافتات بصعوبة ولم يكن بينها اي اسم من تلك التي قال لي عنها الرجل العجوز ولكنني بعد وقت وجدت نفسي في مكان مرتفع جدا يطل على كل شيء فاقتربت من حافة الجبل وتصرت من هناك على البيوت والمآذن وقلت اود ان اجلس طويلا واشم قليلا من هذا الهواء النقي او امدد رجلي من فوق الصخرة الى تحت وانظر للمنحدر العميق وبجواري تلك البنت الحلوة واقبلها وانا على الحافة ولكن كان الامر صعبا فلم استطع ان امدد رجلي او اجلس بجوار الفتاة واقبلها فعدت من نفس الطريق ورايت بابا مفتوحا فتقدمت نحوه وقلت : لا بأس ، ولكن امرأة بدينة ظهرت من الباب وعلى وجهها ابتسامة وترتدي حلقا ذهبيا كبيرا في اذنيها واخذت تهز راسها وتقول . اهلا اهلا تعال ، فدخلت وشعرت باطمئنان لانها كانت اول من تكلمني وقالت هات العجلة هنا فرفعتها داخل البيت وقالت تعال وراني فذهبت وراءها وكان البيت من الداخل متسعا جدا وله درابزين من الخشب وقالت اطلع ورائي فطلعت الى الطابق الثاني فادخلتني الى غرفة بها سرير نحاس مرتفع مغطى بالستائر وكنبة ودولاب وصور للممثلين والممثلات وقالت اجلس على الكنبة فجلست فسألتني كم معك فسألتها ماذا تقصد فقالت كم في جيبك من النقود فقلت لها لماذا فقالت ألا تريد أن تفعل فقلت أفعل أي شيء فقالت ان عندي فتاة صغيرة فاذا كان معي كثير من النقود فانها ستاتي بها من الغرفة الاخرى فقلت ان معي نصف جنيه ولم أكن أقصد هذا الشيء ولم أجيء من أجل هذا بل من اجل السبيل فقالت أي سبيل فقلت لها ان معي خطابا وليس به عنوان فضحكت وقالت يبدو انني شقي جدا ودمي خفيف فقلت لها شكرا فقالت يمكنني أن انام معك بنصف الجنيه فقلت لها انني متزوج فقالت طيب آتيك بالفتاة وآخذ البطاقة حتى تاتي ببقية النقود فقلت لها انني لا اريد أن أفعل اي شيء ولكنها تركتني وذهبت فأخذت أتطلع الى الصور العارية والمكان المرتب النظيف ذي الرائحة الغريبة التي تنبعث من أرجائه وقلت لاهرب بجلدي ولكنني فكرت انها ربما تكون واقفة خلف الباب ممسكة بيدها سكينا ثم انها دخلت بالفتاة وكانت هي الاخرى غليظة وعلى وجهها مساحيق ملونة كثيرة وتلبس منديلا بالترتر وتبتسم نفس الابتسامة فقالت ها هي البنت تفعل حركات عجيبة لم ترها طوال عمرك فقلت يا معين فقالت تحلف على المصحف بأن تأتي في الغد بالباقي فقلت لها ليس عندي نقود واريد شلنا فقالت طيب لاذهب ولكنها قالت انت الآن دخلت البيت ورآك الجيران والخروج والدخول هنا ليس سهلا فقلت ماذا أفعل اذن فقالت تقسم البلد قسمين فقلت لا مانع واعطيتها ربع جنيه ولكنها ففزت وقالت تعال يا حبيبي وأمسكتني بكتا يديها وأخذت تبوسني وقالت الفتاة اتركيه لي فانهالت البنت عليّ بالقبل حتى مددتني على الكنبة وقالت يمكنك الآن ان تذهب الى أمك فركضت على السلم وحملت العجلة الى الشارع وركبتها وانطلقت حتى خرجت من الحارة وأصبحت بعيدا عن البيت فنزلت وجلست لارتاح من التعب وكان هناك كلب اجرب اخذ يقترب مني ويتشمم العجلة ثم انه رفع رجله وبال عليها وكانت الشمس قد بدات تشتد فخفت ان يفوتني النهار فركبت العجلة وانطلقت وقلت لانس الموضوع واذهب وأتجول قليلا في الخلاء دون هم فقد كان هذا يستهويني طوال عمري ويساعدني على ازاحة الهم الثقيل الذي ألمّ بي دائما وأنا على كل حال غير محظوظ بالمرة في اي شيء وفعلا رايت ان الوقت مناسب لمثل هذه الجولة من أجل الترويح فقطعت شوطا طويلا وأنا أغني لنفسي وأصفر حتى يردد الهواء أغنياتي وكان عندنا في الحارة شيخ ضرير يغني أغنيات الهم والكدر ولكنني لم أتذكر منها شيئا فأنا أنسى كثيرا كلمات الاغاني بل انني أنسى أيضا ذكرياتي وأحاول كثيرا لكنني لا أستطيع وأتعجب من أمر الناس الذين يذكرون أشياء كثيرة من طفولتهم وكان البدال قد تزحلق من رجلي فوقعت على الارض وكادت عربة نقل تدهسني لكنني نجوت وقمت ومشيت أجرجر العجلة حتى خف الالم القديم الذي تسبب انزلاقي في عودته اليّ مرة أخرى بعد أن افتكرت انه ذهب ولن يعود ولكنه قبل أن يشتد كنت قد وصلت الى الميدان وكان عسكري المرور ما زال يصفر فاستدرت الى اليمين وأخذت أمشي حتى رايت بعضهم يجلس على مقاعد وفي أيديهم شيشة فقلت هوذا مقهى ولكنني حين اقتربت كما يحدث لي في العادة وتحققت من الامر لم أجد مقهى ولكنهم كانوا ناسا جزارين يجلسون أمام محلهم فلم أسألهم ومشيت طويلا حتى وجدت عشة بها ناس يشربون الشاي فدخلت عليهم وألقيت السلام وجلست على أحد الكراسي القش وكان الالم قد اشتد بي فطلبت شايا وأخرجت علبة سجائري ولم يكن معي كبريت فسألت الرجل ذا الانف الافطس عن ولعة فجاءني ببصة أمسكها بالماشة وأشعل لي سيجارتي وجاءني بالشاي فشربته وطلبت قهوة سادة فقال ان البن قد نفد فقلت اذن شاي فجاءني بكوب آخر شربته أيضا وأخذت أنفث الدخان وقلت لأسأل هؤلاء الناس ولكنني وجدتهم مشغولين بأمور يتكلمون عنها بلغة غريبة حاولت أن أفهم منها شيئا فلم أقدر وخشيت

أن تنحرف الشمس فدفعت الحساب ومضيت وقلت لانظر للخطة فوقفت وأخرجت انورقة وقرأت الرموز غير اني خشيت أن أكون قد نسيتها لانني لم أفهم بعضها فأعدتها للحقيبة مع الخطاب واقتربت من الرصيف وركبت وقلت ان الطريق يبدو صحيحا وانني غالبا في الاتجاه السليم لكنني يجب أن أتروى وفكرت أن أنادي لكنني ضحكت ومضيت في طريقي وأنا أبدل وأبدل حتى وصلت الى حارة كانت النسوة فيها جالسات على الارض وهن يرتدين الملابس السوداء ويبكين فقلت لا بد انه ميتم وصرخت احداهن فنزلت من العجلة ومشيت على الارض وأنا أحاول ألا أنظر اليهن وأخذن يرددن أبياتا من الشعر الحزين وقال لي شاب يقف على مقربة من باب خشبي ضخم منحوت عليه بعض الآيات القرآنية انهم في الجانب الآخر فقلت من هم فقال هم فسألته أليست هذه الحارة نافذة فلم يرد فمشيت وأنا أتجنب النظر الى الميتم واخوض في حفر الطين والزبالة حتى وصلت الى حارة كانت بيوتها تبعث روائح التقلية والماء بالصابون وزرق الدواجن وكان هناك خروف ضخم مربوط من رقبته داخل أحد البيوت يزعق ويزعق وفتاة تعاكسه وتضحك وتقول له يا حبيبي مالك وقلت انها فتاة هائجة وكانت على يميني عطفة يجلس في نهايتها بعض الرجال وهم يشربون الجوزة فقلت لأبدأ السؤال اذن بجدية فقد ضاع مني وقت ولا يجب أن أبدد البقية في المشي بلا هدف وفعلا اقتربت وحييتهم فردوا عليّ برجولة وقالوا تفضل فتفضلت وعرفت انهم يدخنون الحشيش ولم أكن قد عرفت كيف أسأل هؤلاء الناس لكن الشاب القوي الغليظ الذي بدا شرسا جدا قال للولد الذي يسقيهم الجوزة أن يحييني فجاء الولد الذي كان يرتدي سروالا من سراويل الجيش القديمة ربطه من الوسط بدوبارة وكان وجهه مصفرا جدا وعيناه زائغتان وهو يبتسم فقال لي مساء الخير فقلت له مساء الفل وخفت أن أغلط ولم يكن هذا قصدي فوضع الفابة في فمي وأخذ يلعب بالمصفاة التي بها البص ويحركها في الهواء بسرعة عجيبة والنار تطقطق ووضع الحجر على فم الجوزة النحاس ووضع البص على الحجر فكان لا بد مما لا بد منه فشفط فلم يطلع شيء واخذ الرجال ينظرون اليّ وقال أحدهم للولد : سلك الحجر ؛ فأخذ يعبث بالملعقة في الحجر فمشى كل شيء تماما ووجدت الانفاس تتخللني وتدخل في أعماقي حتى الحجر ولع وطقطق الشيء ورأسي مال الى مكانه الذي كان يجب أن يكون فيه من الابد وقلت انني لا بد عائد الى شرب الحشيش بعد أن كنت قد تركته منذ سنوات وأخرجت الدخان من أنفي وفمي وبدت كل المنافذ مشبعة وقلت يا سلام فلأقترب وفعلا قلت الشاب ذي العضلات وأنا أنظر لفانلته نصف الكم السماوي والتي عليها صورة الخطيب تسمح من فضلك فقال نعم فقلت له انني في مشكلة عويصة وأنت تبدو من هذه المنطقة فقال نعم ومن أين أنت فقلت من السيدة فقال ان أمه من السيدة زينب وان أخواله هم أصحاب محلات العصير في السيدة كلها فقلت له تشرفنا فقال لي ما هي مشكلتك فقلت له ان معي خطابا وعليه اسم رجل يدعى « علي » فقال والعنوان فقلت انه مكان اسمه سبيل الشخص فقال أعرفه وسألني ما اذا كنت مستعجلا فقلت لا ولكن ليس معي حشيش لاجلس معهم فقال لا يهم اجلس معي حتى ننتهي من العشرة وأذهب معك وأشار للولد الساقي الذي كنت أود أن أغني له ذلك الموشح فجاء بالجوزة قبالتي وأخذت أشرب وأشرب كما لم أشرب في حياتي أبدا وقلت ان الالم الآن سيزول وسيكون البحث ممتعا وأخذت أشد الانفاس بقوة وأنا أفكر فيما سبق فوجدت ان الحجر قد قفز من الجوزة وطق وفرقع وطار قطعا صغيرة فأخذ الناس ينظرون اليّ ببرود ولكز أحدهم الآخر فشكرتهم على هذا الكرم وقال الشاب البطل انني قراري فقلت لا أبدا لقد كنت أشرب ولي ست سنين لم أذقه فقال اذن وحشك فقلت لا أستطيع أن أجزم ولكن حالي اليوم كرب وربما يكون هو ذلك فقال سننتهي الآن ولفت الجوزة على الجميع وقال اشرب هذا فقلت لا يصح فقال لا بد فقلت طيب وشفطت الحجر الثالث فرأيت الدنيا غيوما وكل شيء سهل ولم تعاودني أفكاري ولكن ركبتيّ بدأتا ترتعشان فقال الشاب هيا بنا فقمت بصعوبة وقلت له هل المكان قريب فقال ليس قريبا وكنت أود أن أركن العجلة ولكنني أمسكتها فقال هل سنركب فقلت انني متعب بعض الشيء فقال تعال لآخذك أمامي فقلت لا داعي فليس لي رغبة في الركوب فقال على كيفك ومشى بجواري وسبقني خطوات ودخل من باب قديم وأخذ يمشي في القبو حتى طلعنا من الناحية الاخرى فأصبحنا في الباطلية وكان الناس يبيعون الحشيش على الواقف في الطريق ويزنونه بالموازين ويكومون النقود وهم يدخنون بشراهة ويأتون بحركات غريبة فأخذنا نمشي بين هؤلاء البعاة حتى ابتعدت أصواتهم وكان يحييهم جميعا بقصد أن يريني علاقاته العديدة معهم وحاولت أن أقترب منه لانه يمشي بسرعة وكان هذا متعبا لي وسألته عن اسمه فقال محمد فقلت له ان اسمي يعقوب ولم يكن هذا اسمي لانه يجب الامان في هذه الاحوال والمناطق الخطرة فقال تشرفنا فسألته عن عمله فقال انه يعمل عملا سريا وكانت الجدية بادية عليه ولكنه لم يسألني عن عملي وكنت أود أن أقول له انني نقاش ولكنني لم أقل ولم أعرف لماذا تذكرت ديوني الكثيرة والآلام التي تسببها لي في كل مكان ثم أنني قلت انه لا يجب أن أسكت فقلت له انني كنت أعمل من زمان مخزنجيا فقال عند من فقلت عند الحاج محمد فقال انه يعمل منذ صغره في هذه

المهنة ولم يسمع بالحاج محمد فسألته ما اذا كان الامر ما يزال مجزيا كما كان في الماضي فقال انه يتقاضى خمسة جنيهات في اليوم ونصف قرش من الصنف الجيد فقلت انني كنت أتقاضى نصف جنيه وربع قرش فقال ان هذا كان زمان الرخص فقلت لكن هذا العمل أصبح هذه الايام خطرا فقال ولا يهمك وان المهم أن يكون المعلم متمكنا ومواظبا على دفع الرواتب فقلت كانت في أيامي سهلة فقال والآن أسهل فوافقته ومضيت بجواره صامتا ولكنني لم أعرف ما اذا كان مخزنجيا أم ناضورجيا فالمسألة تختلف لان المخزنجي في خطر طوال الليل وحتى يأتي النهار ويسلم الامانة للمعلم أما الناضورجي فهو ينظر ولا يفعل أي شيء غير الوقوف على ناصية الشارع فاذا جاء البوليس صفر لزميله فيصفر هو الآخر فيخفون البضاعة وينتهي الامر ولكنه بدا مخزنجيا على أية حال وقلت ان هذا لا يهم حتى نصل وربما تعارفنا واتضح كلّ شيء وعندما جئنا الى حارة المغربلين قال لي أن انتظر فانتظرت فتركني ومضى فركنت العجلة على حائط حجري كتب عليه الاولاد شتائم قذرة وقلت لاجلس بجوارها تحت الحائط وانتظر ولكنني لم أستطع ان أجلس لان عربات الكارو كانت تدخل وتخرج محملة بالفحم والجلود ذات الرائحة العفنة وكذلك النساء اللاتي يطبلن ويضحكن ويقلن .. أمك بلا مناسبة وكانت احداهن ذات عنين سوداوين واسعتين جدا وشفتين حمراوين جدا ومبللتين أيضا وكنت أنا مسطولا فأخذت أطيط بالطياطة حتى تنبهت انه لا يصح أن أظل هكذا أفعل مثل هذه الاشياء على قارعة الطريق فقلت لاعبث بالعجلة كأنها تعطلت لان احداهن كانت تنظر من النافذة فوقي وصدرها عار تماما ومنتصفها بارز خارج الشباك وكانت تهتز ثم ان البيت المواجه كانت له مشربيات أحسست ان هناك من يرقبني من ورائها فأخذت أفك الجنزير لاشغل نفسي فسقط الجنزير وحاولت أن أعيده الى مكانه لكنني لم أستطع حتى مللت وكانت مشكلة جديدة على الرغم من انني أعددت العجلة وزيتها قبل أن أبدأ البحث وتأكدت من أن الجنزير لن ينفك ولكنه قد انفك وكان الوقت يمضي ولكنه جاء وقال تعال ورائي فقلت هل وجدته فقال تعال وسترى فمشيت خلفه حتى دخل بيتا وقال اتبعني واركن العجلة وراء الباب وكان أحدهم يقف خلف الباب وفي يده شيء لامع وقال محمد انها الاحتياطات وطلعنا على سلم خشبي في بيت واسع مدهون بالجير الابيض وبه فوانيس نحاسية معلقة في السقف الخشبي ودخل بي حجرة واسعة كان بها كنب قديم مفروش بالسجاد المزركش وفي الجهة القصوى جلس رجل ذو جلباب أبيض وطاقية بيضاء وأمامه صينية نحاسية عليها أكواب ملونة وكان هذا الرجل يشرب الشيشة ولا أحد معه فدخلت وسلمت فأشار بالجلوس على الكنبة المجاورة وتركنا محمد ثم انه لم يقل شيئا ولكن جاء صبي يرتدي حلة مزركشة بالقصب وعلى رأسه طاقية حاملا صينية عليها كوبان من الشربات الاحمر فشربت فاذا به ذو رائحة عطرة وكنت في حاجة شديدة الى مثل هذا الشيء البارد وأشار عليّ بشرب الكوب الآخر فتمنعت ولكنه غضب قليلا ولم يبتسم الا وأنا أتناول الآخر وأجرعه وأتكرع وقال هنيئا فقلت شكرا وانسحب الغلام فأخذت أتطلع الى السقف المنقوش بالآيات القرآنية والجدران الملونة وانتظرت أن يقول الرجل شيئا ولكنه لم يقل فوضعت يدي في الحقيبة الجلدية وأخرجت الخطاب وقلبته ثم وضعته بجواري على الكنبة فلم يقل الرجل شيئا حتى انتهى من شرب الشيشة ولم يلتفت الي ولكنه راح يحدق في صورة كبيرة لرجل ذي شارب رجبة وقفطان عريض المنكبين طويل القامة واقف وبجواره طاولة رشيقة القوام عليها مسدس وأخذ يبتسم وقال دون أن يحول نظره عن الاطار المذهب هل هذه هي الرسالة فقلت نعم فقال هل هي مفتوحة فقلت نعم فقال ما بها قلت ان بها عبارة فقال ما هي فقلت نحن قادمون فقال ما هو العنوان فقلت انه سبيل الشخص فقال والرجل قلت ان اسمه « علي » فقال اسمع فقلت نعم فقال هل تعرف جامع السلطان قلاوون فقلت أعرفه فقال بعد أن تتركه بقليل اسأل عن عطار يقال له أحمد وقل له انك من طرفي فسيدلك على الفور فقلت انني شاكر جدا فقال اذهب الآن فتركت المكان وكان الغلام يفتح لي الابواب حتى وصلت الى الباب الخارجي في نهاية الممر وكان الشاب حامل النصل ما يزال واقفا وراءه بجوار العجلة فسألته ما اذا كان بامكانه أن يساعدني في تركيب الجنزير فرحب بذلك وبالفعل تمكنا من اعادته الى مكانه في لحظات وحملتها للخارج واقتربت من حجر ارتفعت عليه بينما كان الشاب يطل برأسه من داخل الباب واسترخيت على المقعد وجعلت الحقيبة من الامام وتحركت ولم يكن محمد هناك فلم أسأل عنه وسرت حتى وصلت الى قبو نازل ارتفعت بعده على طريق مرصوف بالحجارة وعبرت ثلاث حوار ثم وصلت الى باب زويلة ورأيت الشناكل التي كان السلاطين يعلقون عليها رقاب الناس وتعجبت من تشعب الطرق والازقة ونفمها المتباعد المتقارب ونزلت عدة مرات لاتفادى الاصطدام بعربة ترمس تحيط بها القلل المغطاة باهرامات نحاسية وعربة يد يجرها عجوز وكذلك عربات أخرى تجرها حمير وخيول وبغال مختلفة بعضها ضعيف وبعضها قوي وعطست أكثر من مرة برائحة الشطة التي تنبعث من محلات العطارة المتزاحمة على جانبي الطريق المكتظ بالمارة ذوي الملابس الملونة وكان على يميني سبيل فقلت لاسأل عن اسمه لكنني استبعدت الفكرة على الفور لان الامر لم يكن بهذه السهولة والا لدلني أول شخص سألته فاقتربت

من ضريح الفوري بصعوبة شديدة وكنت أود أن أنزل وألقي نظرة داخل الضريح لان قبته مرتفعة جدا ومنقوشة بشكل عجيب ولكن حركة المارة أجبرتني على أن أندفع للامام وأعبر شارع الازهر دون أن أرى القباب أو المآذن ودخلت الجانب الآخر في شارع بين القصرين حيث الروائح القوية تنبعث من المحلات المكتظة بزجاجات العطر الملونة وكان عليّ أن أخترق سد البشر الذاهبين والعائدين في سوق الموسكي وهم يحملون أجولة مليئة بالعلب البلاستيك والاواني النحاسية وحين اقتربت من جامع قلاوون كان رأسي قد امتلأ بالاصوات وعيناي بالالوان وأنفي بالروائح وعلقت بي كل تلك البقايا حتى شعرت وأنا أستند بكفي على حجر الجامع محاولا النزول انني مثقل للغاية وأخذت أجرجر العجلة متوقعا سقوط الجنزير في أية لحظة محدقا في المحلات لكنني لم أجد عطارا فسألت حلاقا فقال بعد عشرين مترا تجد حارة تسمى حارة الاخت وهناك بيت على اليمين عليه رسوم الحج هو بيت ذلك العطار ومحله وقال لي رجل مغطى بتراب الحناء انه ذهب الى الجامع وربما وجدته في الميضة أو في الضريح فسألته ما اذا كان بامكاني أن أركن العجلة فرحب بذلك فتركتها وذهبت للجامع وخلعت حذائي ودخلت الميضة لكن أحدا لم يكن هناك سوى شحاذ يرتدي الخلق الملونة ويشرب من الحنفية فلم أسأله ودخلت ساحة الجامع وكان هناك عدد من المصلين فقلت من أسأل وأنا لا أعرف شكل الرجل ولا حجمه ولا سنه وربما كان في الامر بعض المخاطر فعدلت عن ذلك وعدت للرجل وقلت لانتظره هنا فقال انه قد جاء وانه قد نادى عليّ كثيرا وكدت أسأله كيف ناديت عليّ ولكنه قال تعال وقلت انه ربما قال يا صاحب العجلة وكان الرجل جالسا خلف مكتب قديم مطرزة جوانبه بالصدف فقال نعم فقلت له انني قادم اليك لتدلني على سبيل الشخص وان اسم الرجل الذي أبحث عنه « علي » وأن معي له خطابا به كلمتان فطلب أن يرى الرسالة وقال انه يجب أن يرى كل شيء بعينيه فقلت له ان هذا طبيعي فقال لكن الناس تعودوا على شيء آخر فأعطيته الرسالة وجاء رجل الحناء بكوب من التمر هندي فشربته وشكرت الرجل لكنه لم يرد عليّ لانه كان مستغرقا في تمعن الرسالة وأخرج عدسة مكبرة يدقق بها في أطراف الورقة فقلت له ان ليس بها أي شيء آخر فقال انه من الممكن أن يكون بها شيء آخر مكتوب بحبر سري وانه لا يجد الامر مبررا فقلت انني لا أستطيع ان أجزم فقال ولا أنا وترك الرسالة أمامه على المكتب وأخذ يعبث بين الدفاتر والاضبارات القديمة ولكنه عاد للاستغراق والنظر الى النافذة حيث كان الضوء ينعكس خلفها على البيوت وقال هل يمكنك أن تمر عليّ مرة أخرى فقلت انه يمكنني وسأل ضاحكا ما اذا كنت أريد شيئا من هذه العطارة فقلت ان عندي ألما شاملا فقال انتظر فانتظرت فأخذ يخلط لي عددا من الانواع في قرطاس وقال انه في انتظاري فقلت كم أدفع فقال انها بالمجان فشكرته ومضيت راكبا الدراجة وقلت لاعتمد الآن على نفسي أكثر ولا يجب الاتكال على أحد وان الوقت يضيع سدى وما كان يجب عليّ أن أفعل ما فعلت ولكنني فكرت وأنا أبدل وأبدل ما اذا كان بامكاني أن أفعل شيئا آخر في الوقت الذي فعلت فيه ما فعلت فلم أجد وهكذا مضيت حتى باب الفتوح وأخذت أقرأ اليفط في أركان الحارات والشوارع حتى شعرت بجوع فأخذت عندئذ أبحث عن المطاعم حتى وجدت واحدا رخيصا وأكلت فولا وطعمية وشربت شايا في مقهى كان الجميع فيه يلعبون القمار وصاحب المقهى يخرج وينظر في الشارع ويعود ويقول بسرعة بسرعة ويزيدهم حماسا وهم يطرقعون بالورق على الطاولات الحجرية وفوجئت بأن آذان الظهر قد بدأ فانطلقت وقلت ها هو ذا النهار يضيع مني ولكني عدت وقلت لا يجب أن ألتفت لهذا الوقت فالمهم في مثل هذه الحالات أن تصل ومضيت على هذا حتى وجدت نفسي في طريق الدراسة وقلت انها بداية جديدة من مدينة الموتى وان حراس المقابر أو الذين يسكنونها ربما يعلمون عن الموضوع شيئا فالحراس على علم واسع بالاماكن والاشخاص وربما بالزمن أيضا فهذا سيكون مفيدا فيما اذا كان المكان قد اندثر في وقت ما من تاريخ سابق وربما كان الشخص موجودا بالفعل في عصر من العصور ثم حال واندثر ولا بد ان أحدا من عائلته قد مات اذا لم يكن هو قد مات ويكون من الممكن عندئذ أن أصل الى بداية خيط فهو المطلوب في هذه اللحظة وان مجرد الوصول الى هذا الخيط يعني انه لم يبق الا مسألة الزمن وانني على استعداد لتوفيره ولو انني سأبقى طويلا فوق عجلتي على الرغم من تلك الآلام وان دوائي معي على كل حال وعند أول مصدر للماء سأتجرع القليل منه فربما تلاشت الاوجاع واستحالت الى متعة ويبدو انني وقعت على الشيء الصحيح في وقته الذي كان يجب أن أقع فيه عليه قبل أن تأتي الاوقات التي تجعلني أشعر بأنه لا جدوى وانني يجب أن انزل من العجلة وسألت عن نهاية المقابر فقال الرجل العجوز انها بلا نهاية وان الجبل هناك وكان هناك خبز جاف ملقى بجوار أحد الشواهد وكان هذا الشاهد محاطا بالصبار وعدد من الكلاب تدخل وتخرج من أبواب المقابر وكان هناك باب حديدي تحركه الريح فمضيت وكانت هناك جنازة يتقدمها النعش الذي يحمله الرجال فوقفت ورفعت اصبعي وقرأت الفاتحة ثم انهم ابتعدوا فواصلت سيري حتى وصلت الى تلك المقابر المكتظة بالمهاجرين فسألت شابا فقال ان أفضل شخص يدلني على أي مكان أو شخص في هذا العالم هو الشيخ حسن وقادني اليه فأدخلني الى حجرته المكتظة بالاشياء والروائح

وقال انه كان بامكانه أن يساعدني لو كنت أعرف اسم الاب ثم قال انه يعرف كثيرا من السبل التي يمكنه أن يدلني عليها فهناك سبيل شارية وسبيل سليمان باشا وسبيل اسماعيل افندي الخربوطلي وسبيل السلطان الغوري وسبيل الشاوشية وسبيل السواقي وسبيل شريفة شلته وسبيل آغا الباب وسبيل السلطان مراد وسبيل باب العزب وسبيل المصطفاوية وسبيل كخية بعضها قد اندثر وبعضها موجود ولكنه يستطيع أن يدلني على اماكنها جميعا لكن سبيل الشخص هذا لا يعرفه فقلت انه من الممكن أن يكون المقصود بالسبيل شيئا آخر فقال ربما ودعاني لشرب الشاي لكنني لم أجد رغبة في شرب الشاي وأخبرته بأنني ربما استعنت به في وقت آخر فلم يقل شيئا وهكذا كان عليّ أن أعبر مدينة الموتى وذهبت حتى السيدة نفيسة بعد أن قطعت الطريق الطويل المحفوف بالجبال والمنحدرات والقلاع والاسوار وكانت المحاولة مستمرة ولم يوقفني أحد وعجلتي في يدي وكان هناك راكب آخر نظر الي وقال انني أعرفك ولم أذكر ولكن وجهه كان مألوفا وقد بدا عليه التعب والقلق وامتلأ قميصه بالعرق فسألني عن طريقي فقلت انني متابع المشي في محاذاة الخليج حتى السيدة نفيسة فقال لا بد انني ذاهب للضريح فقلت انني ذاهب للبحث عن رجل يسمى علي في منطقة تسمى سبيل الشخص فقال انه لا يعرف مكانا بهذا الاسم ولكن الرجل الذي يعمل عنده ربما عرفه فقلت له لماذا فقال لانه عالم في الآثار فسألته ما اذا كان ممكنا أن أراه فقال انه ذاهب الى بيته وان بامكانه أن ينزل من العجلة ويكتب لي العنوان فقلت انني لا أريد عناوين فقال انه متعب الآن ولكنه يستطيع أن يذهب معي في الغد فواعدته عند محطة الاوتوبيس في التاسعة صباحا وتركني واسرع وكنت أود اللحاق به ولكنه ابتعد وتضاءل واختفى عند المنحدر ولم تكن بي قوة فاعتراني الخمول والكسل فدخلت السيدة نفيسة وكان أفضل مكان أبدأ منه هو المقهى فجلست وشربت قهوة ولم أسأل أحدا وبعد وقت قاومت تلك الرغبة ومشيت بجوار عجلتي وقد ثقلت حقيبتي وأخذت أقرأ اليفط وانظر للبيوت ثم انني سألت شابا فقال انه يعرف الطريق فهل لدي رغبة في معرفته ولم أعرف عن اي شيء يتحدث فقال انهم هناك فقلت من هم فقال تعال معي وأخذني الى ربع قديم يجلس الاطفال أمام حجراته حتى طلعنا الى حجرة صغيرة في الطابق الثاني مكتظة بالمجلات والكتب والاوراق وبها ثلاثة شبان يتوسطهم واحد ذو لحية كثة وكانوا مرهقين جدا وقالوا اجلس معنا واعطوني سيجارة فقلت انني ادخن من السجائر اللف وأخرجت علبتي المعدن فسألني ذو اللحية عن اسمي فقلت له أول اسم خطر على بالي وهو علي وقال الذي قابلني في الطريق انه يبحث عن شخص فقلت انني فعلا أبحث عن سبيل الشخص فسألني ما اذا كان هذا اسمه فقلت انه اسم المكان الذي به الشخص ولكن اسم الرجل « علي » فقال ان هذا عجيب فاسمك علي وتريد شخصا باسم علي وانا أيضا اسمي علي فلماذا تريده اذن فقلت ان معي رسالة وأخرجتها على الفور فأخذها وقرأها وراح ينظر لرفاقه وقال لهم غامزا انها مهمة للغاية وأخذ يردد العبارة وسألني منذ متى وأنا أبحث فقلت انني أبحث منذ الصباح فقال ان الامر يهمهم جدا وسألني عن امكانية أن أترك الخطاب معهم حتى الصباح فقلت انني لا أستطيع فقالوا انهم سيذهبون الى الغرفة المجاورة وأغلقوا الباب فتمددت على الكنبة وأخذتني غفوة ثم انهم جاءوا فاستيقظت واعتدلت وعرضوا عليّ أن أستريح عندهم فقلت ان لي بيتا فقالوا انهم قد ناقشوا العبارة فقلت أي عبارة فقالوا نحن قادمون فقلت ثم ماذا فقالوا انهم يجدونني معهم على الطريق فقلت انني فقط أود لو وجدت سبيل الشخص فقالوا انهم يودون الشيء نفسه ولو بطريقة أخرى فقلت ما هي هذه الطريقة فقالوا انهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئا حتى آتي مرة أخرى فقلت انني سأحاول فقالوا اننا نعتبرك معنا فقلت معهم في أي شيء فقالوا انهم يودون أن يفعلوا شيئا فقلت ما هو هذا الشيء فقالوا سنقول لك فيما بعد فقلت ان الوقت يمضي فقالوا لا يهم أن يمضي الوقت وشربت شايا وودعتهم وانصرفت ثم انني مشيت ومشيت حتى خرجت من الحارة والحارة الاخرى فاعتدلت الطريق وركبت العجلة وشعرت بأنني حصلت على بعض الكلام وكانت الشمس قد بدأت تصفر فقلت ان أمامي بعضا من الوقت وتركت نفسي للمزلقان حتى وصلت الى السيدة عيشة وقلت لا فائدة من هنا ووجدت شيخا يضع على رأسه عمامة خضراء ويرتدي الجبة والقفطان وفي رجليه مداس بان منه اصبعه الابهام فنزلت وسلمت عليه فقال كأنه يعرفني فقلت ان عندي مسألة فقال انه سيجد حلا ان شاء الله وأشار الي بأن أتبعه فمشيت خلفه فأخذ يخب ودخل من تحت سور الخليج فدخلت خلفه وجاء الى زاوية وخلع حذاءه وقال اركن العجلة فركنت العجلة وخلعت حذائي ودخلت وأنا أنظر ما اذا كان هناك شخص يسرق العجلة ولكنه قال تعال فذهبت فوضع الحذاء بجواره على الحصير ففعلت مثله ثم جلسنا بجوار العمود وقال « ها » فقلت يا مولانا ان معي رسالة فقال اعطني اياها فقلت انها ليست لك ولكنها لشخص يسمى « علي » ويسكن سبيل الشخص فقال أرني اياها فأخرجتها من الحقيبة وقلت انها مفتوحة فأخرج الورقة من المظروف وقربها من عينيه وكانت السبحة معلقة في كفه وحباتها تطقطق والزمن يمضي بهدوء حتى انني أخذت أتطلع الى السقف الخشبي ورأيت طيورا غريبة تقفز من ركن الى آخر ثم انه قال اسمع فقلت نعم فقال

ان هذا الامر يحتاج الى من هو أرفع مقاما فقلت كيف نقال اننا في حاجة الى مشوار الى طنطا فالرجل الذي عنده الاجابة هناك فقلت ولكن كيف الذهاب الى طنطا فقال نذهب كما يذهب الناس فقلت له طيب وكان في بالي أن أخادع وأمضي ولا أعود فقال هيا بنا الآن فقلت له انني في حاجة لاعود أهلي وأخبرهم وانهي بعض حوائجي فرأيته قد زعل فوضعت الرسالة في حقيبتي وعلقتها في رقبتي وسلمت عليه راغبا في التزويغ ولم أحدد ميعادا فقال اسمع فقلت نعم فقال لقد وجدت حلا آخر فقلت ما هو هذا الحل فقال مشوار قصير واتبعني فقلت هذا سهل ومضيت خلفه فأخذ يهم وأنا أهم خلفه بعجلتي وأنا أجرها فأخذ يدخل في السراديب والازقة والحواري وأنا أتبعه وهو يطلع من زرقوب ويدخل في آخر ونحن على هذه الحال حتى جاء الى باب كبير ودخله واذا بنا داخل ساحة واسعة وبها ذكر ورجال يهتزون ويصرخون ويقولون الله الله والشيخ جالس على الارض في وسطهم وقد أشار هو اليه ففهمت انه المقصود فأمسكني من يدي وقال تعال نأخذ هذا الاسم فركنت العجلة بجوار زير عليها غطاء عليه كيزان كثيرة مربوطة بحبال ووقف هو في الصف ووقفت بجواره وأخذنا فترة حتى دخلنا في الدور لانهم كانوا في الوجد ووجدتها فرصة وأنا أتوه وأغيب عن العالم وأنا أفكر في الراحة فاذا بي في حالة انبساط وقد فارقتني روحي وأخذت أغيب وأندمج ولم أعرف الا وهو يمسكني من كتفي ويقول وحدوه فجلست وأنا دائخ وقلبي يدق فاذا به يأخذني الى الشيخ وقد مال على يده وقبلها وسحب يدي اليه فاذا بي أقبل يد الشيخ وأرتاح لذلك وأنا لم أفعل هذا أبدا ثم انه قال للشيخ يا سيدي هذا رجل باحث عن علي فهز الشيخ رأسه مرات فأخرجت الخطاب وأعطيته الورقة فقرأها ووضعها بجواره وقال اقترب ووضع يده على رأسي وأخذ يقرأ أشياء ثم انه رفع يده من على رأسي ونظر الي وأخذ يحدق في وجهي طويلا وقال توسل بالله تجد الطريق وقال يجب عليك الاغتسال فقلت انني نظيف دائما فقال الحمد لله فابتسمت وقال انه موجود هنا دائما وانني يمكن أن آتي كلما شئت فقلت لا مانع فقال انه يتنبأ بأنني سأكون في مرتبة قريبا ثم انه أخرج حجابا ملفوفا في قماش ووضعه في يدي وقال احتفظ بهذا دائما ولا تتركه فقلت انني سأفعل فقال الشيخ الذي جاء بي هذا حسن فلم أقل شيئا وكان الناس يذهبون فذهبت أنا الآخر وتركت ذا العمامة الخضراء وركبت عجلتي في الطريق وواصلت سيري فوجدت الشمس وقد بدأت تنزلق الى المغيب وكان التعب قد أدركني فنزلت وجلست على حجر وما هي الا لحظات حتى وجدتني أكلم نفسي بأشياء وأشياء وقلت هاه ووقفت وركبت وأخذت أبدل وأبدل وتعبت رجلاي وتقلصت عضلاتي وأنا أكاد أصطدم بالعجلات في كل وقت لكنه لم يحدث شيء من هذا حتى وصلت الى المقهى اياه فوجدت العجوز يلعب الطاولة فجلست بالقرب منه واستندت للوراء وشربت شايا وكان النوم يتغلب عني ومع هذا انتظرت حتى انتهى من اللعب وكان يبدو خسران فقال لي أنت هنا فقلت انني اياه فقال وماذا فعلت أنت فقلت انني بذلت جهدي فقال اقترب مني فاقتربت منه فقال ان عندي فكرة وراح فعلا يفكر ثم نظر الي وقال كيف الاحوال فقلت عال فقال ان الحياة هكذا فقلت أفهم فقال انه أحيانا يجد عنده رغبة في الموت فقلت له ومال هذا وموضوعنا فقال ان له علاقة فقلت افهم فقال ان كل شيء في الحياة هو منها فقلت طيب فقال ما دام هذا في الحياة وهذا في الحياة فهما شيء واحد فقلت فهمت فقال لو انها عندي سهلة لكانت عندك سهلة فقلت انه حدثني من قبل على انه تغلب على الصعوبات فقال انه لم يتغلب عليها ولكنه تركها تمر فمرت فقلت آه فقال انه سيفكر هذه الليلة في موضوعي فقلت طيب أمشي أنا فقال لا لا تمشي ثم انه وقف ودفع الحساب وسلم على الناس وقال تعال معي فقلت الى اين فقال الى بيته فقلت وماذا نفعل فقال ان عنده صندوقا قديما في البيت وان به مخطوطات قديمة فقلت وماذا نفعل بها فقال نقلب فيها طبعا فقلت في عقلي ومن يعرف ومضيت معه فتركني واقفا بعجلتي عند الباب نحو ساعة زمن ثم عاد وقال لا مؤاخذة تعال فدخلت فقال هات العجلة في الصالة ودخلت معه حجرة بها كنبة اسطنبولي ودولاب وبيجامة مخططة معلقة في الحائط ونتيجة قديمة فقال زحزح معي الكنبة فزحزحتها فأخذ الصندوق يظهر ونحن نحركه بصعوبة حتى أخرجناه من تحتها فجلس يلهث على الكنبة وخلته سينفق ولكنه قال معلهش فقلت انني آسف فقال ولا على بالك فأخرجت الحقيبة من رقبتي فقال ارتح فقلت هل يبدو انني فنق فقال لا مهموم قليلا ثم انه طلب مني الخطاب وأخذه في يده وبسطه على الكنبة ثم رفع غطاء الصندوق وقال يا ساتر فاذا بها روائح قديمة تطلع من الاوراق والمخطوطات فأخذ يعبث ويعبث حتى أخرج كتابا بعينه وقال ها هو الذي يتحدث عن الزمان ووضعه بجانب الورقة وأخذ يعبث وأخرج كتابا آخر وقال هيا هو الذي يبحث عن المكان ثم انه أخرج ثالثا وقال هذا عن الاعداد ثم انه أخرج من جيبه نوتة وقلما وقال امسك هذه فأخذت النوتة والقلم في يدي فقال احسب معي كلمة « علي » فقلت كيف فقال لا تسأل ان العين تساوي ٧٠ واللام تساوي ٣٠ والياء تساوي ١٠ فيكون المجموع ١١٠ ثم انه راح يجمع ويطرح ويقسم وهكذا فاذا بالنتيجة ١١٥٣ زائد ١١٠ يساوي ١٢٦٣ جاءت من جمع علي وسبيل الشخص وأضاف نحن قادمون فأصبح عندنا ١٦٦٨ فقال انه يمكن ان يكون هذا هو

الزمن فقلت بالهجري أم بالافرنجي فقال بالهجري طبعا فقلت ان هذا باقي عليه قرون وقرون فقال طبعا ثم انه اعتدل في جلسته وقال ياد الواحد تعب وما نحن كذلك حتى سمعنا طرقا على باب الحجرة فقام هو ومد يده وجاء بصينية بها كوب من الشاي فأخذت أشرب وأنا أنتظر حتى وجدته ينام فقلت طيب سأذهب أنا فقال طيب سأفكر أنا فقلت انني سأمر عليه فقال انه سيبحث في كتاب الزمان وكتاب المكان فقلت أين سيكون في الغد فقال في المقهى فقلت سأمر عليه ثم انني ودعته وأخرجت عجلتي من الصالة الى الشارع وأخذت أمشي بها حتى وصلت الى بيتي في أمان وطرقت الباب ففتحت خالتي الباب ولم أسمع هيصة فقلت وأين الاولاد فقالت ان زوجتي ذهبت الى بيت أمها لتضع طفلها هناك فقلت وهل جاء الوقت فقالت انها شعرت بالآلام وكان هناك ماء كثير فقلت أنا جوعان فغادرت الغرفة وأنا انظر لمطرح الاولاد وجاءتني بسلطانية بها مرق وفتة فأكلتها ودخنت سيجارة ونمت في مكاني حتى أيقظني آذان الفجر وأخذت أقاوم النوم وأنا أقوم وأفتح الشباك وأشعل المصباح وأخذت أتطلع للسماء الزرقاء والنجوم تغوص فيها نجمة نجمة حتى جاء الضوء كله فدخلت دورة المياه وتبولت وغسلت وجهي وعدت فاذا بخالتي قد استيقظت وأشعلت الوابور وعملت لي شايا فشربته وقلت لها اعطيني جنيها مما معك فأعطتني الجنيه فوضعته في الحقيبة وفتشت عن الرسالة فوجدتها فعلقت الحقيبة وأخذت عجلتي للخارج ومشيت بها حتى جئت شارع مراسينا وكان هناك رجل يبيع الفول على عربة والناس من حوله يأكلون ويضحكون فنزلت وطلبت فولا وبصلا وأخذت آكل حتى امتلأت ولم أستطع بعدها أن أركب العجلة فأخذت أمشي ولم يكن هناك زحام في الشارع وكانت المشربيات والمنارات والقباب لها روح من المماليك والفاطميين والعثمانيين وغيرهم وغلالة الصباح غمرت روحي فاعتراني الكسل والرغبة في الجلوس على مقهى فمشيت حتى وصلت مقهى وجلست أشرب الشاي بصوت وأنا أفكر في هذا اليوم وقلت انني أتبع طريقة العداء فأبدأ بهدوء ثم أتدرج وأتدرج حتى لا أتعب وفعلا ركبت العجلة وفعلت هكذا وأنا آتي للنواحي وأنظر لليفط وأقراها ثم أمشي وهكذا حتى جاء موعدي عند المحطة وكان الناس قد بدأوا يسرعون بفتح الورش والروائح تتصاعد وأنا أفكر في موعدي وفي الموضوع فاذا بي أشعر وكأنني لا أريد ولكنني قلت انني أريد أن أفعل هذه المرة ما لم أفعله من قبل مرة واحدة في حياتي دون أن أسأل ولو كان في ذلك بعض التعب لكنني أكون عندئذ قد فعلت شيئا ولو انني أضعت من وقتي وجهدي الذي ضاع من قبل فأين هو الآن وأنا كنت أتحرك من قبل كثيرا كما البدال في أي اتجاه وأي هدف وقلت يا ولد ان كل ما هنالك يريدك أن تتراجع فاخط خطوك واخرج عن الخطة وتجاوز العطب والفساد فها أنذا متزوج وصاحب أولاد وعمل فماذا غير انني كانت الخيوط تحركني أيها الدمية وأنا هكذا قبل حتى أن أصل الى من يدلني على ان سبيل الشخص كان هنا لكنه اندثر في وقت لو انني عرفته فان ذلك حسن وان علي ربما مات وخلف من ورائه شيئا وربما انه لم يترك أي اثر وان شيئا بالنسبة له كان متعلقا بهذه الرسالة وها أنذا أحملها بعد فوات الوقت ولكنه كان هناك من أتته الحماسة لان يحملها ويظل باحثا عنه يوما أو يومين حتى ارتبط الخيط بالتاريخ الفائت الذي لم يتطابق مع زمننا لكنني شاهد وحملت التبعة وأنا أصطدم بآخر حجر في الطريق المتعرج الذي انتهت اليه المحاولة دون أن تخرج المسألة عن الطبع الذي وجدت عليه منذ الأزل وحتى الابد الآتي الذي ما أنا الا مجرد ذرة فيه تتراكم مع السنين والايام والعصور والتواريخ لتأتي السيئة والحسنة والشد والجذب وأنا بين فكي الرحى وهي تدور وتدور فتتركني هشيما أو تفلا يلقى في الصفائح ويحمله الزبالون في المقاطف أيها الزبالون أين أنتم ويملأون به العربات المتهالكة التي تجرها الحمير الضعيفة ويحرسها الاطفال الزبالون القذرون الضعاف وهم يقاومون الذباب الذي يحوم ويرتاح على رؤوسهم المليئة بالقمل والبقع المتخثرة وتفوح منها الروائح التي اعتادوها كما اعتدت أن أحمل ألمي في جنبي وأمشي وتمر الايام والسنون وأنا أخفيه أحيانا وأظهره أحيانا لكن القدرة والوقت لا يسعفان فأمشي به وأنا أبدل وأبدل وأقطع الطرق والحواري أقاوم الفكر فلا أجد طعما للنوم أو الطعام أو امرأتي وأفعل ما أفعل وأنا على عجلة من أمري تقودني الرغبة في أن أنهي اللحظات بطريقة من الطرق التي لم أكن قد عرفتها حتى أجدني وكل شيء قد اهتز من حولي وأصابني العطب وأنام وأرى زوجتي والاطفال يسعون وأستيقظ وقد تربى العملاق الكسول ومدد قدميه تحت الشجرة اليابسة وضحك فجأة ولبس التاج من الريش الملون وقاد المركبة الذهبية التي تجرها الخيول المطهمة ومن حولها تجري الاسود وهو يجتاز الجبال والسهول والصحارى الصامتة تغني بها الريح تلك الاغنية الممدودة وأشعة الشمس تنتفض على دروعه الذهبية وتتلاشى عند الغروب حيث يبدأ صوت الضفادع والجعارين يتبادل النغم والريح وأمواج النيل المتكسرة على الشاطىء المكتظ بالاعشاب والطيور الملونة وأنا أبدل وأبدل حتى انتهي الى نقطة أبدأ منها وعندما أفكر في الذين قابلتهم ورأيتهم أجد ان الامر حسن وان ذلك أفضل مما لو لم يكن سواء حاول الرجل العجوز أن يقرئني المخطوطات أو عدّد لي حارس الموتى تلك السبل التي عرضها أو أراد هؤلاء الشبان أن يشعروني بالخطورة أو أن يأخذ

الشيخ بيدي في الطريق أو مدني النطار بالدواء الذي يشفي جميع الامراض ونسيته في المقهى فكل هؤلاء أفادوا بأنني يجب أن أمشي في أماكن جديدة ولكني أحاول الآن مرة اخرى مع الطباخ الذي كان راكبا عجلته وها أنذا أقف تحت مظلة المحطة وأنتظر وأتابع الواقفين في قلقهم حتى المحه قادما فاعتدل الطريق وأنا أبتسم وأتبعه وهو يقودني في الطرقات المشعبة حتى نصل الى الطريق المنحوت في قلب الجبل الى أعلى المقطم وأدخل معه حديقة واسعة بها أنواع الزهور وأنتظره على الباب وهو يدخل وينادي عليّ من مشربية في الطابق الثاني فاذا بي في ردهة واسعة مليئة بالطنافس والزجاج المعشق وأجلس على كنبة قديمة فيأتي الرجل مرتديا الروب دي شامبر ويمد يده الي ثم يسألني عن حالي وهو يدخن البايب فأضع يدي في حقيبتي وأستخرج الرسالة فيقرأها مندهشا ويظل يحدق بها ثم يأتي بالنظارات ويقلبها مرة ثانية ويهز رأسه ويقول كلمة بالانكليزية ثم يسألني عن الاماكن التي ذهبت اليها والرجال الذين رأيتهم فأعددهم له واحدا واحدا وأحكي له ما جرى معي فيهز رأسه ثم يحكي حكايته مع الآثار وكيف عرفها وأين سافر وماذا رأى ومع من تحدث ويقول انه لم يسمع قط بهذا العنوان فهل من سمع ولم يعرف أيا من السبل بهذا الاسم والوصف ويقول كثيرا عن سبب خلوته وجنون عشقه بعد أن عرف حكاية رجل اسمه ماريت جاء الى هنا واهتاج وقال كلاما (*)

وحمل خرائطه وذهب الى سقارة فأخذ يبحث وينقب حتى وجد مقبرة العجول التي كان الفراعنة يعبدونها فاستراح ولكنه قال انه سيتركني لحظات وذهب للداخل وعاد ومعه ملف مليء بالاوراق أخذ يقلبها ويحدق فيها ثم انه قال انه يئس وانه عندما يحس بهذه المشاعر فانه لا يقدر على النظر في الموضوع وقال ان هناك رجلا عجوزا اسمه حسن ذو لحية بيضاء وثياب رثة من الكتان الخشن يعيش في عشة صغيرة بجوار الاهرام على علم واسع بسير الملوك والحكام وعوائد الزمان وما جرى في التواريخ السابقة والايام الغامضة وانه يحسن بي الذهاب اليه وسؤاله عن المكان ولا أغضب اذا شخط أو نهر فانه من الممكن أن يكون عارفا بسبيل الشخص وهذه حاله وأعطاني الرسالة فقمت ووضعتها في حقيبتي وعلقتها في رقبتي وعملت على رحلة طويلة وركبت عجلتي من توي واتجهت خارجا من الشوارع المرتفعة وأنا أهبط مع الجبل حتى جئت الميدان وكان عسكري المرور يصفر فاعتدلت الطريق السائر في محاذاة مجرى العيون الى مصر القديمة ومنعت نفسي عن الافكار حتى وصلت الى مفترق الطرق عند السيدة نفيسة ونظرت المكان الذي انتظرت فيه الرجل ومضيت حتى شعرت ببداية التعب فنزلت قريبا من المذبح وجلست على مقهى وشربت شايا وجعلني الجو المنعش أركب العجلة حتى وصلت بالقرب من جامع عمرو بن العاص وكان هناك موقف للعربات الكارو والعربجية يجلسون على الرصيف حول رجل يبيع الشاي ويعده على قفص من الجريد ووابور الجاز حوله صفيحة قديمة مخروقة فقلت لا بد ان هؤلاء العربجية داروا ولفوا وهم ينقلون الاشياء من مكان الى مكان ومنهم من تقدم به العمر ولحق الاماكن والطرقات قبل أن تتغير أسماؤها فوقفت عندهم وأنا أنظر فجاء أحدهم وقال ما معك فقلت ما معي شيء فهز رموشه الكثيفة وفعل حركة باصبعه السبابة وشخر شخرة اهتز لها بدال العجلة وأخذت فقلت له يا هذا لماذا فقال أمك وأم أمك فقلت له انني سائل عن شيء وأنا عابر من هنا فقال عربجي آخر يلف وسطه بحبل ماذا تريد فكررت له قولي فقال تعال الى هذا الرجل الذي هناك واترك هذا فجئت معه وكان الرجل عجوزا ويجلس في ركن فوق حزمة برسيم فقال له هذا يريد معرفة مكان فأقفل العجوز عينا وفتح الاخرى وأخذ ينظر صامتا وخفت أن يفعل كذلك ولكنه لم يفعل وقال اجلس فركنت العجلة على الحائط وجلست فقال ما عندك فقلت انني باحث عن رجل اسمه

(*) النص : « ان منظر القاهرة من أعلى القلعة ، لهو من اروع المناظر التي تخطر على البال ، وها انذا قد وجدت نفسي ؛ غداة زيارتي للبطريرك ، اقف في هذا المكان اتمتع بهذا المنظر قبيل الغروب . هذه هي المدينة تمتد امامي ، وقد خيل الي كما لو ان غلالة كثيفة من الضباب تخيم عليها وتغرق في بحرها جميع المنازل ، من سمت الارض الى ما فوق الاسقف . ومن خضم هذا البحر من الضباب الكثيف تعلو سامقة في السماء ثلاثمائة من المآذن ، كما لو انها اشرعة اسطول ضخم تطفو فوق سطح الماء بعد ان غاصت سفنه في قاع البحر ، واذا ما جال المرء بنظره جهة الجنوب ، يجد على بعد بعيد منه ، غابات النخيل كما لو ان جذورها قد غاصت في جدران مدينة منف المتداعية ، واذا ما اتجه جهة المغرب ، يجد شفق الشمس وهو في المغيب بحمرته وخيوطه الذهبية تلف الاهرامات وهي راسخة كالطود الشامخ . يا له من منظر رائع ، ملك علي لبي وهز كل مشاعري في عنف لا يخلو من الالم . انني لارجو القارىء أن يغفر لي تصوير هذه الاحاسيس والمشاعر التي ربما بدت شخصية بحتة ، فاذا كنت قد الححت في ذكرها فذلك لان اللحظة كانت من اللحظات الحاسمة في حياتي . فها انذا اجد امام ناظري الجيزة وابو صير وسقارة ودهشور وميت رهينة ، انه حلم الحياة وها انذا اراه وقد تحقق الان . هناك على مقربة مني وفي متناول يدي عالم آخر بكل هذا !! غداة ذلك اليوم ، استأجرت بغلتين لحمل حقائبي ، وحمارا لاركبه الى هناك ، كما اشتريت خيمة وبعض الصناديق لملئها بما يلزم من مؤونة وزاد . وموجز القول فقد اعددت كل ما يلزم لمثل هذه الرحلة في الصحراء . وفي عصر يوم ٢٠ اكتوبر كنت اعسكر انا والقافلة عند سفوح الهرم الاكبر » .

ا. هـ.

« علي » في مكان اسمه « سبيل الشخص » فهل أنت تعرف هذا المكان فقال هذا المكان غريب ويا بني لقد مررت على كل هذه الديار والامصار فلم أعرف مثل هذا المكان ولم أسمع به من قبل ولكنه شمر عن ساعديه فرأيت أبو زيد الهلالي منقوشا على زنده راكبا أسده وممسكا سيفه وكان العربجية يزعقون بشكل متوحش ويتبادلون السباب بطريقة مقذعة فقال لي هل تعرف هذه الكنيسة وأشار الى يمينه فقلت له لا أعرفها فقال لي ان أذهب الى هناك وأسأل عن أبونا مرقص فهو رجل علامة في التاريخ ويعرف كل مكان في هذه النهاية فشكرته وابتسمت للعربجي الاول الذي أخذ ينظر بعداء وركبت حتى وصلت الى أمام كنيسة اسمها مار جرجس وسألت الرجل الجالس في المدخل فأشار بأن اتبعه وقال لفتاة لها عيون سود ملفحة بشال فلاحي أن تراعي العجلة من أولاد المدارس واجتزنا ساحة فيها قصاري ورود وأزهار وآنية قديمة وحجارة وطلع أمامي على سلم عريض له درابزين ثم دق على باب بالكف الحديد المدلاة مرتين فما انتظرنا الا قليلا حتى انفتح الباب ، واحدث تزيكا معتقا وبرز منه قس عاري الرأس وفي يده أوراق من مخطوط قديم وأخذ يهز رأسه فأشار الحارس الي فهز هو رأسه وقال تعال فدخلت في حجرة واسعة خفيفة الضوء فيها أرائك مملوكية ومفارش قبطية وكتب بالعربية واللغات ومائدة نحيلة عليها محبرة وريشة وصحائف وقطع من الحجارة فجلس هو خلف هذه المائدة وأجلسني على كنبة تحت النافذة المدورة الوحيدة التي تلقي بحزمة الاشعة الآتية من مسقط الضوء فيما بين ركنين لنفس المبنى القديم للكنيسة المعلقة على سطح المائدة فبدا وجهه خلف حزمة الضوء كأنه وراء مرآة قديمة ولا بد انني كنت أيضا كذلك غير انه بادرني بالسؤال فقلت له باختصار انني كذا وكذا وأشرت الى مظروف الرسالة وقد يكون من الصعب معرفة الشخص المذكور ولكن اذا عرفت المكان فانني سأحدد موقفي من الشخص وأريد المكان أولا وقد بحثت وقتا طويلا ولم أجد وغيره وغيره فأخذ يقرأ العبارة وأنا أتحدث حديثا متقطعا وأنا أحس هذا الجو الغريب الذي وددت لو عشت فيه عمري في حجرة سقفها قبو وشبابيكها منحوتة من الخشب المنقوش وضوؤها معلق على الاركان وقد بدا تمثال المسيح المصلوب على الجدار يبعث في هدوءا يقشع ضجيج المركبات وصياح الحناجر وحركات الايدي والرقاب الكثيرة وعجائز النسوة الغليظة تتحرك في عصبية تراها على الوجوه الملطخة بالمساحيق والافواه المفتوحة وبها الاسنان البارزة والعيون الواسعة المحاطة بدوائر الكحل وأنا صامت هكذا كما هذا الاب الهادىء الذي رطن باللسان ثم قال انه قال لنفسه ان المعارف بلا نهاية ولا بداية فها هي ذي مسألة جديدة ولا بد ان يكون لهذا المكان أصل وفصل في مرحلة من مراحل التاريخ المتعاقبة التي مرت هنا ثم انه بدا واسع العلم بالتواريخ والازمان وأخذ يقص علي حكايات عجيبة عن شعب عجيب وجمهور كالبحر يهدر في العاصفة ويكون هادئا بعد أن تهدأ ذلك الهدوء الذي يجعل الاغراب يوجهون له الاتهام ثم انه قال انه رحل طويلا وكثيرا في هذه العصور والازمان لكنه يبدو انه سيعود ويرحل مرة ثانية اثر الرسالة ثم انه صمت وقام وأتى بمجلد من مجلدات التاريخ الواسع وفتح صفحة وأخذ يقلب ويهز رأسه وقد وقف خارجا عن طوره وقال يا بني يا بني باللغة الفصحى ثم انه لما طال وهو يكلم نفسه باللسان قلت له انني أذهب الآن والوقت ومروره والقلق ركبني فقال انه سينقل ما هو مكتوب على الظرف والورقة ويحتفظ به ويعود اليه لكنه قال لماذا يا بني قد جئتني الآن وأنا مشغول بالبحث في أصل الحروف وقد توصلت الى حلول لسبعة عشر حرفا أفتريد أن توقفني عن مواصلة بحثي أم ماذا فقلت انني لا أقصد شيئا من هذا فقال ضاحكا انه يعرف ولكنها الصدف وقد تدخلت بعضها في السابق فأوقفته عن بحثه ولكنه قال لهذا السبب فانني سأؤجل البحث في أمرك ويمكنك أن تعود الي بعد أن أكون قد أنهيت البحث عن أصل الحروف فسألته عن الموعد فضحك ضحكة تحركت لها الجرة القديمة القائمة في الركن على حامل من الحديد الصدىء وقال هذه الامور لا يمكن تحديد مواعيدها فربما انتهى به العمر وهو لم يبلغ الحرف التالي وانه بلغ السبعين ولكنه صمت وقال يمكنك أن تعودني متى شئت وتسأل ما اذا كان هناك خبر عن الامر وتمشي وانه ربما وجد وربما لا فهذه أمور تحتاج الى تقص وتحركت الى حيث عجلتي واقفة فأخذتها ومشيت بها قليلا وركبتها في الشمس وقلت لاتوجه الى ذلك الرجل في الاهرام وأخذت أبدل وأبدل حتى وصلت الى كوبري « فم الخليج » وتخطيته فأصبحت في الروضة ثم جئت الى كوبري الجيزة وكان الهواء فوقه رطبا ومنعشا والنيل يتماوج ووصلت الى شارع الهرم وكنت أرى بين اللحظة والاخرى أحد الكباريهات والعمال ينظفونه ويلقون بزجاجات الخمر الفارغة خارجا عنه وما أن اعتدل الطريق حتى كانت العربات تنطلق بجنون وكدت أقع تحتها عدة مرات فالتزمت جانب الرصيف وأبطأت في سيري وأنا أحاذر حتى شعرت بالاجهاد فوقفت تحت شجرة وجلست على حجر بعض الوقت وكانت الشمس قد بدأت تسخن فواصلت سيري حتى ظهرت الاهرامات من بعيد وأخذت تكبر وتكبر وجئت للمطلع فلم أستطع ركوبه بالعجلة فنزلت وأخذت أسحبها وكان السياح ينزلون من العربات ويقفون ويندهشون وهم يحدقون لقمة الاهرام ويرطنون باللسان والاولاد يجرون حولهم ويقدمون لهم السبح والمراوح الملونة ويطلبون البقشيش

وكان بعض السياح يركب الجمال وبعضهم الخيول وبعضهم الحمير ويأخذون صورا وهم عليها فوقفت انظر هذا المنظر العجيب بعض الوقت ثم انني أخرجت الخارطة التي رسمها لي الرجل الفنان ومشيت حسب ما فيها من سهام حتى وصلت الى جنب الهرم الاصغر وهناك وجدت حارسا سالته عن مكان العشة وعن الرجل الذي اسمه حسن فقال لي انها في الشرق قليلا فاخذت امشي بالعجلة في الرمال وهي تقف وتزرجن مني فاحملها وامنعها حتى وصلت الى مكان بعيد به العشة وامامها رجل يجلس على حجر مرتديا لباسا من الكتان ذلك الذي في رسوم الفراعنة يصل الى ركبتيه ويقرا في كتاب باللاوندي واخذ ينظر الي بتحد حتى اقتربت منه وحييته فهز راسه ولم يقل شيئا فاخذت احاول وانا ابلع ريقي وهو يحدق ويحدق وقلت له انني ما جئت الا لما قال لي ذلك الرجل الذي في المقطم فابتسم وقال انه صديقي ولكنه حمار فقلت له يا سيدي هل تسمح لي بالجلوس فقال تفضل فقلت له يا سيدي ان معي رسالة وعنوانا وانا حائر منذ الامس وقد تعبت وانا عازم على توصيلها فهز راسه فقلت يا سيدي انني بحثت في كل الشوارع وسالت كل من قدرت انه يعرف وقد عييت من طول البحث وانني قاصدك لتدلني فلعل وعسى فقال ارني الخطاب فاخرجته من حقيبتي واعطيته له وانا مؤمل كثيرا فاخذ يقرأ وقد وصل قلبي الى قدمي وراح يقلب فيها طويلا ثم رش عليها من الرمال ونفضها وقراها ثانية ثم انه قام ودخل العشة وجاء بنظارة مكبرة واخذ يتطلع لها وهو يوجه الورقة الى الشمس وظل واقفا نحوا من ساعة زمن وهو محدق في الورقة ومتطلع فيها وهو يهز راسه واذا به يتحول ويدخل العشة ويخرج منها حقيبة من الصفيح كتلك التي يستعملها الجنود في الحرب وفتحها وأخرج منها أقلاما وأوراقا كثيرة مكتوبة باللسان واخذ يحدث نفسه حديثا خارجا وهو يعمل بهمة ثم انه تمطع وقال « آه » ونام على الرمال واخذ يأتي بحركات غريبة وينظر للسماء ويقول يا نجوم يا نجوم وكانت الشمس ملتهبة والسياح يجرون الى ظل الاهرامات ويضعون أيديهم على عيونهم ثم انه مضى وقت طويل وانا جالس ساكتا حتى انني أحببت هذا المنظر وتمنيت ان أظل جالسا هكذا على هذه الصخرة ناظرا الى الصحراء الممتدة وخيوط الالوان الباهتة وكل شيء ولكنه قام وأخرج غليونه من جيب سترته واخذ يحاول أن يشعله والريح تطفيء العود وهكذا مرات حتى أشعل الغليون وقال « هكذا هكذا » فقلت له يا سيدي ماذا فقال ماذا فقلت له هل أنتظر فقال على كيفك فقلت هل هناك شيء عنده فقال كل شيء هنا وأشار الى راسه فقلت له هل أعوده بعد وقت فقال بعد وقت طويل فقلت له انني ذاهب فأعطاني الخطاب فقلت الا يحتاج لكتابة العبارة فقال انه حفظها فقلت الا من موعد فقال ليس الآن فقلت لاذهب الآن ورفعت عجلتي النائمة على الرمال ومشيت حتى الهرم الاكبر وانا متطلع الى الخواجات وقلت لاجلس واتفرج عليهم وبرزت لي فتاة أجنبية نصف عارية من صدرها ومن تحت حتى رأيت كل شيء مالت الي وأخذت تبتسم لي وتقول شيئا وانا لا أعرف واذا هي تأخذ الكاميرا وتلتقط لي صورا وانا على هذه الحال ثم انها أمسكتني بيدها الطرية ورائحة العطر تفوح منها تحت الهرم الاكبر فأوقفتني وجعلتني أمسك بعجلتي ونادت على فتاة ثانية وامسكت بي واحتضنتني فراحت الثانية تلتقط الصور ثم انها وضعت في جيبي شيئا ولم أشعر الا وهي تختفي من امامي فوضعت يدي في جيبي واخرجت ذلك الشيء فاذا به عقد من الخرز الملون وكنت ظانا انه مال او سجائر ولكن رائحته كانت عطرة فابقيته بالقرب من انفي وانا اتنفس فيه واشم وتخيلت اني زنجي من نجاد افريقيا فوضعت يدي على راسي وأخذت اتنطط واحدث صوتا وأقول « هوء هوء » وجررت عجلتي ومشيت وانا ادفع الرمال بأقدامي واحدث غبارا وشغبا حتى وصلت الى المزلقان وركبت العجلة وتركتها تجري بقوتها وانا عائد هذه العودة التي حطتني على الطريق نفسه الذي أتيت منه فأوقفت العجلة بالكاد قبل أن تصطدم باوتوبيس وركنتها على شجرة وخبطت بيدي على يدي وقلت ياه وانا أهز راسي وأنظر للشمس يا عاشقا تجرفه الريح في طياتها وانا غير يائس أبدا وامشي على المراحل واركب في الازمان والاشياء تدق في راسي وقد ركبني الانشغال وانا عارف ما وصل اليه الحال حتى وجدت امرأة تقف على الرصيف في نحو الاربعين تلبس باروكة حمراء فوق شعرها الاسود الذي خطه المشيب مرتدية فستانا أحمر لامعا يرتفع فوق ركبتيها المجعدتين وقد بان فيهما اثر الحك باللوفة والحجر وهي لابسة شرابا أسود كالشبكة الواسعة وقد وضعت على وجهها الاحمر وحول عينيها الاخضر والاسود وهي تهز رأسها وما تحت وتزيق وتبتسم ولا تنظر أحدا فقلت لا حول ولا قوة وأخذت أتفكر في هذه الدنيا وما تفعله بالناس وما كان بي أن أستمر في هذا الطريق الطويل الذي يمتلىء بعناوين الكازينوهات الملونة الرافعة عاليا صور الراقصات العاريات وعلامات الموسيقى المتفجرة فانحرفت الى طريق جانبي يؤدي الى القرى والمزارع وأعجبني منظر الخضرة الذي ما رأيته من زمن والعصافير تزقزق وتفكرت في انه ربما يكون لي ولد الآن وما أنا عارف به ولا رأيته وكان الطريق محفوفا بالاشجار العاليات التي تحتك بالهواء فتحدث خشخشة والعصافير والفروع تدخل وتخرج وما أنا الا برجل عجوز يجلس أمام عشة يشعل نارا ويضع شايا في كوز أسود فألقيت عليه السلام فرد علي ودعاني لشرب الشاي فقلت له يا أخي والله ما بي حاجة لشرب شيء

ولكن بي هم ثقيل وأنا راغب في الجلوس والترويح فقال تعال فجلست جنبه وأنا راكن العجلة على فرع شجرة ضخمة وفروع الدخان النحيلة ترتفع ما بين يدي الرجل المتأمل وهو ينظر الي مرة والى عجلتي مرة حتى قال لي مثل أنا منهم فقلت له من هم فقال ان الناحية الآن منكوبة بعصابة تسرق الفتيات من أمام المدارس وتأتي بهن الى القرية التي خلف الترعة وتحبسهن في بيوت سرية بعد أن يفعلوا بهن الفاحشة وان معهم رجلا مهما يأتي بعربته ويأخذهن الى الطريق الآخر فلم أعرف ما يقول به ولكنني أحسست يدا ثقيلة تمسكني من كتفي وترفعني وتهزني وما كان بي شيء وما كانت هذه اليد ولكنه شيء توقعته تحت هذه الشجرة وأمام هذه العشة واذا بها فتاة تطلع من حافة الترعة وهي عارية كما ولدتها أمها فأخذ الرجل يضحك ويقول لها شيئا بصوت عال ويقول الملعونة فقلت من هي هذه البنت البضة ولماذا هي تستحم في الماء وتنشره فقال انها متلبسة بالمتسايح وعليها جني عظيم لا يقدر عليه أحد وهو يطلب منها أن تأتي هذه الافعال وكانت تتزوج فخطفها ليلة دخلتها على عريسها وهي على هذه الحال منذ زمن فقلت يا أخي عندكم من المصائب الشيء الكثير فضحك الرجل وبانت أسنانه السوداء وصب لي شايا ثقيلا في كوب صغير وقال هذه الدنيا نفسها مصيبة ولا يعيش الانس الا ومعه كثيرا منها ولن تجد مكانا ليس به وراح يعد الجوزة ويشرب ويعطيني أنفاسا وفيما نحن على هذه الحال اذا بأصوات كثيرة تأتي من الجسر فيقول لي انه الولد سلمان ابن جزار البلد يطهرونه فقلت له بالله عليك هل تدلني أين أنا فقال لي أنت في هذا العالم وما أنت ببعيد عن شارع الهرم فقدمت له سيجارة من علبتي اللف وأشعلت أنا واحدة لي من النار التي أمامنا واذا بالزفة تمشي على الجسر والولد لابس جلبابا أبيض وطاقية وراكب على حصان عليه سرج ملون وهو يتمخطر ومن حوله رجال وأولاد وبنات من الفلاحين وعربات كارو عليها نسوة يزغردن بالعالي واذا رجل ضخم يطلق أعيرة نارية في الحقول الهادئة الالوان وما أنا الا متذكر يوم عرس وأخذني هذا عما أنا فيه وهكذا الى أن تنبهت بأن الوقت قد مضى وانا واقف ومسلم على الرجل ومعتدل الطريق بعجلتي ومشيت على الجسر وتحت الاشجار في الهواء حتى جئت السيدة زينب وأنا تعب جدا وجائع فاشتريت شقتين من الفول ووقفت على ناصية وأنا آكلهما وشربت كوبا من الخروب الساقع وانبسطت وكان عندي وقت وأنا مصرّ على أن أمضي فاذا بعربة عليها ميكروفون تزعق والمنادي يبح صوته وما أحد سامع عليه ولكنه يقول يا أيها الناس واذا بزفة من الاولاد حاملي العصيان تتبع العربة وأنا وراءهم والعربة تدخل في شارع وتخرج الى آخر والمنادي يقول تعالوا تعالوا والاولاد يقولون هيه هيه واذا هو يقف أمام صوان به مقاعد كثيرة ورجل يلبس سترة سوداء ومعلق على صدره شريطا به كتابة سياسية راح يشير بيده للناس المتجمعين في الصوان واذا بهم جلوس والشاي والحلويات على الصواني تلف على الجميع والرجل واقف يخطب وكان مؤتمرا احتشد فيه الخلق والرجل يزعق ويقول أشياء وأشياء وهو مهتم جدا والناس يتلفتون للرجل النوبي حامل الصواني وهو يقول أنتم في الغد تذهبون للانتخاب وأنهى كلامه واذا بالخلق تنصرف ولكن الرجل زعق وقال اسمعوا آيات الله فاذا شيخ يعتلي المنصة ويقرأ من القرآن والناس يقولون الله الله حتى ختم ربعين وأنا أود أن أشق طريقي الى هذا الرجل المتحدث ولكنه اندس بين الخلق واختفى كفص الملح في الماء وأنا متضايق أسأل عنه وقال شاب لابس سترة ومعلق شارة أيضا أنت تأتي في الغد وتجده وتسأله عن حاجتك فقلت طيب ومشيت واذا بي في الدرب الاحمر والشمس تميل الى الغروب وقلت ان عندي وقتا فاذا بي أدخل في الحواري وما هي الا فكرة جاءت على بالي فذهبت الى خان الخليلي وسألت عن رجل أسمه عثمان كان لي معه شان في السابق فاذا بهم يقولون انه جالس في الدكان الفلاني وما أنا الا به في وجهي فأخذني من يدي وفرح فرحا شديدا وقال انه يذهب معي يوم الجمعة القادم ويبحث معي بطريقة ثانية وكنا يوم الاحد وقلت انني ماض في طريقي حتى يوم الاحد وتركته واذا بي أطلع الى مطلع الدراسة وأرتفع فوق المدينة وأجلس على حجر لارتاح وأفكر فما وجدت فائدة وقلت أرتاح هذا الليل وأفكر في الصباح ماذا يكون الامر وما يجب أن أنقطع عن زوجتي وأولادي فيظنون بي الظنون وأنا أذهب اليهم من عشيتي وأعرف ما اذا كان ولدا أم بنتا وأتدبر مالا وأعطيه لأمها وأشتري له لباسا وما تحتاجه أمور الرضاعة واذا بي في دوامة والليل يسدل أستاره فاذا الوقت وقد مضى فركبت العجلة واعتدلت الطريق النازل الى البلد واذا بخلق كثيرين يأتون من كل صوب ويصبون في الميدان ويصرخون ويزمجرون وهم يرفعون أيديهم وما مضت لحظات حتى امتلأ بهم الطريق وما قدرت أن أخترق الزحام واذا بأصوات العربات تزمجر واذا أنا لا أعرف ماذا دار وما رأيت الا عربة بوليس وهي تصطدم بي وما أنا على هذه الحال وفي غيبوبة تامة حتى رأيتني أصحو على ممرضة وعسكري جالس على مقعد فقلت أين أنا فقالت الممرضة أنت في المستشفى وقد انكسرت ذراعك ورجلك وما كنت شعرت بهما حتى هذه اللحظة فسألت عن حقيبتي فقالت اسأل العسكري فقال انها في القسم فقلت ما الذي دار في هذا العالم وأين رسالتي فقال كل شيء سيبين عما قريب واذا بها تقول أنت غبت عن الدنيا يومين كانت فيها مقلوبة والاسواق والشوارع تحترق وما هي الا ثوان حتى جاء

الضابط وقال « ها » هل أفقت من غيبوبتك فقلت أن المقدر والمكتوب لا بد أن يحدث فقال بطل دردشة وما كان هذا قصدي فقال للعسكري هات مقعدا وجلس بجوار سريري وقال اسمع فقلت نعم فقال أنا أسألك وأنت تجيب بلا لف ولا دوران فقلت عن أي شيء أجيب وما أنا فعلت شيئا فقال اننا وجدناك تحت العربية وها هي عجلتك وقد انكسرت نصفين فحزنت ورأيتها ممددة على الارض بجوار السرير وكل عجلة لوحدها وقال الضابط انه سيأخذها معه ويحتفظ بها فقلت انني كنت ذاهبا الى أهل زوجتي لارى طفلي فقال وماذا في هذه الرسالة فقلت فيها ما فيها فقال ومن هذا علي فقلت انني لا أعرفه وأنا باحث عنه فقال وأين هذا العنوان فقلت انني درت ولففت وما عرفته فقال طيب سأعرف كل شيء بعد ان تتحرك وجعلني أوقع على المحضر ومضى وهو يقول للعسكري الذي جاء معه خذ هذه العجلة وقال للآخر اجلس هنا وخرج وتركني مع العسكري فقلت له أيها العسكري ماذا جرى فقال لا تسألني عن شيء فقلت له هل يمكنني أن أتصل بأهلي فقال انه يسأل في هذا فقلت له ان عندي طفلا جديدا وما رأيته فقال الله يحفظه فقلت وماذا عن الرسالة وهل ضاعت فقال كل شيء في الحفظ باسمك حتى تقوم فقلت ها هو قد حدث حادث وما كان كل شيء الا هكذا كما كان واعتلانى الالم والهم وركبني الفكر وأنا عارف انني لا محالة قد دخلت في حكاية .

القاهرة

صدر حديثا :

طيور بعد الطوفان

للشاعر

ياسر بدر الدين

يصلك عبر لوحاته الملحمية بأدق الامكنة حساسية ، حيث ترتفع اغاني الوجدان المعذب لتمتزج بعذابات النفس التواقة الى الخلاص.. النيران في كل مكان . تشب من البقايا ومن البدايات ، والرياح تحرك الصواري التعبة ، والايقاع دافيء وهادىء أو بارد متضجر .

انه المعادلة الاصعب لحركات بطيئة وسريعة ، تنبعث وتتلاشى على الشواطىء والسفوح والمطلات ، انه المعادلة الانقى لحب قديم فجّر الرواسب وحرّك الحي من جذوره ، وهو المعادلة الشاملة حيث يبدأ النمو بين الخرائب الرمادية والاسواق العائدة الى الحياة .

« طيور بعد الطوفان » مجموعة من اللوحات الرومانسية النافرة بشكل اجنحة تطير نحو عالم أجمل وأقوى .

منشورات دار الآداب